مؤلّفات المركز، 2022، ص. 63-76

الأمير عبد القادر في المراجع الفرنسية الأكثر انتشارا

الطيب ولد العروسي[1]

مقدّمة

تعتبر الموسوعات العامة في أوروبا بشكل عام، وفي فرنسا بشكل خاص، مصادر معلومات مهمة يرجع إليها الدارس والمهتم، وحتى الشخص العادي الراغب في الاستطلاع، فلمعرفة أعماق وأبعاد الموضوع الذي يريد الاشتغال فيه يعمد الباحث أولا إلى حصر هذه الموسوعات، وثانيا إلى الإلمام بمادتها دراسة وتمحيصا. أما إذا أراد التعمق أكثر فأكثر في موضوع دراسته، فإنه يذهب إلى أبعد من ذلك، فيزوّد معلوماته بقراءاته لبعض المراجع المثبتة في صلب هذه المؤلفات التي هي عبارة عن معالم توجيهية. لذا يحق لنا أن نقول بأن الموسوعات العامة هي مصادر أساسية للبحث الأكاديمي، ومفاتيح حقيقية لاكتساب المعارف الكونية، بل إنها - فضلا عن ذلك - وسائل ناجعة لتكوين وبلورة وتوجيه الرأي العام.

والملاحظ أن أغلب المكتبات العامة والخاصة ثرية بهذا النوع من الكتب المرجعية. ونظرا لكونها لا غنى عنها لكل باحث، وأهميتها الكبيرة في التوجيه العلمي وحتى الإيديولوجي (رؤية الآخر)، وعليه أقترح موضوع : " الأمير عبد القادر في المراجع الفرنسية الأكثر انتشارا ".

ومن خلال العنوان فسأقوم باستقراء المادة المخصصة للأمير عبد القادر في مجموعة من المراجع الموسوعية المكتوبة باللغة الفرنسية للنظر في طريقة معالجتها لهذا الموضوع والوقوف على محطات اهتماماتها. وقد اخترت من بين المراجع الموسوعية الكثيرة، الأكثر تداولا بين جمهور القراء والباحثين الفرنكوفونيين، وهي كالتالي : معجم لاروس الصغير معجم روبير الصغير.

[1] Institut du Monde Arabe, Paris, France.

1- الموسوعة الكونية دائرة المعارف الإسلامية

2- معجم لاروس

3- موسوعة ويكبيديا (أنترنيت)

4- خلاصة

تعتبر هذه الكتب مصادر لتثقيف وتوجيه الفرنسيين في الآن نفسه، فكيف تقدم لهم الأمير عبد القادر، وماهي المحاور التي تركز عليها ؟ وما هي المراجع التي تعتمدها لاستقاء معلوماتها ؟ نحاول الإجابة عن هذه الأسئلة محللين وجهات النظر المقدمة في معالجة موضوع الأمير، كما سنعطي فكرة على كل موسوعة، وعن قيمتها التوثيقية.

مكانة الكتب المرجعية في البحث العلمي

تعتبر هذه المصادر في اصطلاح الدراسات المكتبية تلك "الكتب الشَّاملة التي نُسِّقت وكُثِّفت المعلومات فيها، ورُتِّبت ترتيبًا منطقيًّا مُعيَّنًا، لا يهدف ولا يساعد عادةً على القراءة المتصلة من أولها إلى آخرها، وإنما يرجع القارئ إليها، ويستشيرها الباحث عند الحاجة إلى معلومة أو معلومات معيَّنة، بسهولة ويسر، ولا تتأثَّر وحداتها بحذف بعضها ؛ لعدم تتابعها"[1]، (الهجرسي، 1971) فلمعرفة أعماق وأبعاد الموضوع الذي يريد الباحث الاشتغال عليه، يعمد أولا إلى حصر هذه الموسوعات، وثانيا إلى الإلمام بمادتها دراسة وتمحيصا. وهي أي المصادر المرتبة أبجديا "كتب مرجعية نرجع إليها في كل مرة نريد معلومات مجهزة (أحيانا تعطي فكرة) حول موضوع معين، وهي كتب أساسية يعتمدها الباحثون" (Beaudiques et Béthery, 1995, p. 21). والملاحظ أن أغلب المكتبات العامة والخاصة ثرية بهذا النوع من الكتب المرجعية. ونظرا لكونها لا غنى عنها لدى الباحث لأهميتها الكبيرة في التوجيه العلمي، لأن هذا النوع من الكتب " يتركز على تاريخ اجتماعي، يكون أحيانا وحيدا، وأحيانا أخرى متفرقا : فهم يقدمون نظرة أيديولوجية وعلمية للمجتمعات أو إلى المجموعات البشرية التي تفبركها" (Prévoteau et Utard, 2005, p. 89)، لأن المرجع كما يؤكد أغلب المهتمين بعلم المكتبات والتوثيق، هو عبارة عن كتاب يرجع إليه للحصول على معلومة أو عدة معلومات أولية وهي نوعان :

[1] ينظر أيضًا : عبدالجبار، عبدالرحمن (1990م). **المدخل إلى المراجع العربية العامة**. البصرة : جامعة ص. 11.

1- مراجع تحيل إلى المعلومات بطريقة مباشرة مثل دوائر المعارف، أو الموسوعات والقواميس، أو المعاجم والأدلة وكتب التراجم.

2- مراجع تدل الباحث على المصدر الذي يجد فيه المادة أو المعلومات التي يحتاج إليها، أي أنها مفاتيح لمصادر المعلومات مثل (الببليوجرافيات، الكشافات). لكن مع التطور التقني فإن هناك مصدرا مهما يرجع إليه كل من يريد أن يبحث على موضوع معين، ونقصد به الإنترنيت هذا الفضاء المفتوح الذي أصبح بمثابة مكتبة متنقلة نجد فيها موضوعات مختلفة، هذا دون أن ننسى الكتب المرقمنة والالكترونية، والأسطوانات المدمجة، لذا فنحن أمام عالم من المعلومات التي تتيحها هذه الكتابات بمختلف أوعيتها، فكيف تقدم المراجع الفرنسية[2] التي لا يعتمدها الفرنسي فحسب، بل حتى الفرنكفوني حول الأمير عبد القادر ؟ وما ماهي المحاور التي تركز عليها ؟ وما هي المراجع التي تعتمدها لاستقاء معلوماتها ؟ هذا ما نحاول تقديمه من خلال المادة المتوفرة في هذه الكتابات الموجهة للبحث العلمي وربما الإيديولوجي، لأنها تعكس وجهة نظر المؤسسة الساهرة على هذه الكتب المرجعية.

معجم لاروس الصغير

تجدر الإشارة إلى أن هذا المعجم يعتبر من بين أكثر المراجع المستعملة في الحياة الثقافية والاجتماعية في فرنسا، يستعان به في إيجاد المترادفات، ويعتمد كمادة أولية للبحث عن أي موضوع يشغل الأسرة أو المكتبيين، أو الباحثين، أو حتى صناع القرار[3]، وهو

[2] هذا النوع من الكتب لم يعد يَلقَ الاهتمام الكافي في دراساتنا المختلفة وفي وعينا الثقافي العام، رغم تدريسه في أقسام المكتبات، فعلى سبيل المثال لا يوجد معجم أو موسوعة عربية حديثة موحدة ومحيّنة تساعد الباحث على استيقاء معلوماته، وفي هذه الحال يجد نفسه مضطرا للعودة إلى مراجع غربية.

[3] تجدر الإشارة إلى أن مؤسسة لاروس قد احتفت بمرور 133 سنة على تأسيسها، ويعود الفضل إلى مؤسسها بيار لاروس (1817-1875) الذي أعطى اسمه للمؤسسة، وهو لغوي وموسوعي وبيداغوجي فرنسي، ولد بضواحي باريس من أب كان يمتهن الحدادة. اهتم بيار لاروس بمسألة اللغة الفرنسية وتقريبها من الطلبة والباحثين واللغويين.

دخل المشروع حيز التنفيذ عام 1905 تحت رئاسة عالم التربية واللغوي الفرنسي كلود أوجي (1854-1924)، الذي أدرك ضرورة وضع معجم مبسط أثراه بصور وخرائط ومصطلحات وشخصيات جديدة. وتحتفل مؤسسة لاروس هذا العام بمرور 110 سنوات على إنشاء معجم "لاروس الصغير"، وهو معجم فرنسي- فرنسي، تعتمده كل الشرائح الاجتماعية للبحث عن مقابل للكلمات والمصطلحات التي يرغبون في فهمها.

يقدم الأمير عبد القادر بطريقة مختصرة لكنها تعتبر أساسية، لأنها تعتمد في بقية المراجع بطريقة أوسع، تؤكد المادة على أن "الأمير عبد القادر ولد بالقرب من معسكر سنة 1808م وتوفي في دمشق عام 1883م، وهو "أمير عربي". قاد المقاومة ضد الغزو الفرنسي للجزائر، بعد استحواذ الدوك "دومال" على السمالة عام 1843م، وانهزام مواليه في المغرب أمام "إيزلي" عام 1844م، استسلم سنة 1847م أمام "لامورسيار"، سُجن في فرنسا حتى سنة 1852م ثم سمح له بالتوجه إلى دمشق (Le Petit Larousse illustre, 2013).

لم تقدم هذه المادة الجانب الإنساني ولا الثقافي للأمير، كما تجدر الإشارة إلى أن هذه المادة راسخة ولم تتغير، لأننا بحثنا في نفس المعجم الصادر منذ عام 2001 وهو يقدم نفس المعلومات[4].

يسهر على هذه المؤسسة مجموعة من علماء اللغة، ومؤرخون وأدباء وصحفيون وعلماء اجتماع، لأنهم مقتنعون بأن اللغة تثرى بطريقة مستمرة في مختلف المجالات : العلوم والبيئة والتقنيات الحديثة، وعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها. وتناقش هذه المجموعة المتكونة من 40 شخصية المصطلحات الجديدة قبل أن تقرر إثباتها في المعجم. **يتضمن معجم لاروس على مادة غزيرة تتجاوز 80،000 كلمة و34،000 عبارة. ومادة صرفية تحتوي على أكثر من 9600 فعلا.** إضافة إلى **العديد من القضايا والمفاهيم الأساسية الرئيسية للثقافة العامة، وهو مزود برسوم بيانية وكذلك تعليمية.**

[4] المشكل المطروح هو ضحالة المادة المقدمة في بعض الكتب المرجعية العربية حول الأمير. لنأخذ على سبيل المثال تلك الموجودة في المنجد وهي كالتالي : "عبد القادر الجزائري، 1808- 1883م أمير جزائري مجاهد، حارب الفرنسيين 1832- 1842، استسلم فنفي إلى فرنسا ثم استقر في دمشق، دافع عن المسيحيين في فتنة 1860، من آثاره : **ديوان شعر**". ينظر : **المنجد في اللغة والإعلام**. (ط. 33). بيروت : دار المشرق، ص. 8-67.

أما المرجع الثاني فهو كتاب الأعلام للزركلي، الذي يقدم مادة موسعة ولكنها في حاجة إلى مراجعة وترتيب خاصة فيما يخص السنوات المذكورة، إذ يؤكد المؤلف على أن الأمير عبد القادر "بن محي الدين الجزائري، في القيطنة (من قرى إيالة وهران بالجزائر، وتعلم في وهران، وحج مع أبيه سنة 1241 هجرية، فزار المدينة ودمشق وبغداد، ولما دخل الفرنسيون بلاد الجزائر (سنة 1249-1843) في الحقيقة عام 1830، وليس كما قال المؤلف 1843) بايعه الجزائريون وولوه القيام بأمر الجهاد، فنهض بهم، وقاتل الفرنسيين خمسة عشر سنة، ضرب في أثنائها نقودا سماها (المحمدية)، وأنشأ معامل للأسلحة والأدوات البحرية وملابس الجلد، وكان في معاركه يتقدم جيشه ببسالة عجيبة. وأخباره مع الفرنسيين في احتلالهم للجزائر كثيرة، لا مجال لاستقصائها، ولما هادنهم سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن بن هشام ضعف الأمير عبد القادر فاشترط شروطا للاستسلام رضي بها الفرنسيون، واستسلم سنة 1263 هجرية- 1847 م، فنقلوه إلى طولون، ومنها إلى أنبواز (وفي الحقيقة هي أمبواز)،حيث أقام نيفا وأربع سنين، وزاره نابليون الثالث فسرّحه، مشترطا أن لا يعود إلى الجزائر، ورتب له مبلغا من المال يأخذه كل عام، فزار باريس والأستانة، واستقر في دمشق سنة 1271 هجرية، وتوفي فيها، من آثاره العلمية "ذكرى العاقل"، "رسالة في العلوم والأخلاق" و "**ديوان شعر**" و"**المواقف" ثلاثة أجزاء في التصوف**"، ينظر : الزركلي، (1992م). **كتاب الأعلام**. بيروت : دار المشرق. المجلد الرابع، صص. 45-46. أوردنا هاتين الشهادتين حتى نبين بأن المادة المقدمة فيهما لا تقدم بديلا مهمّا لما هو موجود في قاموس لاروس، وبقية المراجع الأخرى التي سنأتي على ذكرها.

معجم روبير الصغير

هذا المرجع واحد من جملة أعمال معجمية وموسوعية تحمل كلها اسم روبير. وهي مراجع لا غنى عنها للدارس الفرانكفوني، لأنه يمنح الباحث المعلومة الأولى ويرسخها فيه لكونه يُعتمد أساسا كمرجع عام متداول في جميع البيوت والمكتبات والمدارس، والمؤسسات اللغوية والتوثيقية... وهو يعتمد لغنى مادته من جهة، ولشرعيته الأكاديمية من جهة أخرى، وكذا للدعم الذي يحصل عليه من طرف الدولة الفرنسية[5].

يقدم هذا المعجم مادة تكاد تكون مطابقة لما قدمه لاروس، لكنه يتطرق إلى الأمير بأنه "ولد في عائلة شريفة كانت تسيّر زاوية (نوع من القبة) القادرية، تربى تربية دينية أهّلته لأن يكون عالم لاهوتي (ديني)، غير أن الغزو الفرنسي للجزائر حوله إلى عسكري" (Rey, 2014, p. 4)، فبعد أن تتطرق المادة إلى شجاعة وإقدام الأمير، والحرب التي قام بها وإلى توحيد العروش، ثم خسارته أمام الفرنسيين والاحتماء بملك المغرب، هنا نلمس تناقضا، لأننا نرى وكأن الأمير قد ذهب إلى المغرب لكي يعيد عافية جيشه ثم يرجع إلى الجزائر، "لقد استطاع أن يجر ملك المغرب في الحرب، بعد قنبلة مدينة السويرة وطنجة وخسارة الجيش المغربي على شواطئ (إيزلي 14 أوت 1944)، لقد طرد السلطان عبد القادر الذي اغتنم الفرصة بعد عدة أشهر لتنظيم حركات عصيانية للعودة إلى الكفاح، لجأ إلى المغرب لكنه أبعد منه من جديد "(Rey, 2014, p. 4)، وعلاوة على هذا يشيد بالأمير في تنظيمه لدولة حديثة أساسها الإسلام، إذ اختار لها مجموعة من المسيرين الدينيين المتفتحين. وجعل من "تاغدامت" عاصمة لها، غير أننا نجد وكأن الأمير، وهذا حسب المادة المقدمة، عمل كل ذلك برضى من الفرنسيين، أعطوه المساعدات واقترحوا عليه أن تكون الجزائر حماية على شاكلة المغرب وتونس[6].

تجدر الإشارة إلى القول أن هذه المادة قارة ولم تقدم حولها أية تعديلات، وهذا ما لاحظناه في طبعة سنة 2010 و2011 وما قبلها وبعدها.

---

[5] معجم روبير قاموس فرنسي لغوي يصدر منذ سنة 1967، يعتبر بمثابة مجلد مختصر أبجدي وشامل للغة الفرنسية، تجدد طبعاته سنويا وتثرى بمفردات ومعلومات إضافية. وهو يقدم ثراءاللغة الفرنسية. وهو بالإضافة إلى إعطائه تعريفا للكلمات وتوضيحا لها بـ الأمثلة، يحتوي أيضا على المتضادات، والمترادفات، إذ تحتوي كل طبعة على أكثر من 60.000 كلمة 300.000 معنى، و34.000 استشهاد ... (ينظر مقدمة المعجم).

[6] هذه المعلومات تستدعي النظر من قبل المؤرخين والمهتمين بالأمير عبد القادر لأنها (في رأيي) بحاجة إلى مراجعة وغربلة وتعديل.

الموسوعة الكونية (Encyclopédia Universalis)[7]

تعتبر هذه الموسوعة من الكتب المعتمدة بشكل كبير في الأبحاث الجامعية والأكاديمية الفرنسية والفرانكفونية، كونها مكتوبة من قبل متخصصين ومذيلة بمراجع تساعد الباحث على مواصلة أبحاثه. وهي من الموسوعات المرجعية الكونية، و تمتاز بشيء آخر يطبعها والمتمثل في كثرة الروابط التي تتميز بها عن غيرها، ولها جانبان : سلبي وإيجابي. أما السلبي فيتمثل في عدم تناسق ألوان الكتابة وكثرة الكلمات المسطّرة التي من شأنها التشويش على القارئ، والإيجابي، ويتمثل في كون كل المصطلحات الجغرافية والتاريخية وغيرها مشروحة في أماكن أخرى من الموسوعة يمكن الحصول عليها بسهولة بفضل الروابط.

إن كاتب مادة الأمير عبد القادر هو المؤرخ الفرنسي شارل روبير أجيرون[8] Charles-Robert Ageron، تقع هذه المادة في أربعة أعمدة مزودة ببليوغرافية مهمة، لكن أغلب الكتب المثبتة هي باللغتين الفرنسية والإنجليزية.

بعد أن يتطرق إلى سنة ولادة الأمير والعائلة التي ولد فيها، نلاحظ أن بداية المادة شبيهة كثيرا بمادة معجم "روبير الصغير"، مما يفضي بنا القول إلى أنه هو كاتبها بشكل مختصر.

يرى بأن "التربية التي تلقاها الأمير جعلت منه مسلما متصوفا وفقيها، لكن أوضاع بلده حولته ليكون ثوريا" (Encyclopaedia universalis, 2011)، وأنه نظّم جيشا قويا لم يستطع الفرنسيون اختراقه رغم معاونة بعض العروش لهم، بحيث جمع 10 آلاف متطوع، لكنه يعيد نفس الحادثة التي تركت الأمير يستعين بملك المغرب[9]، وهذا الأخير لم يعطه يد

---

[7] يتم نشر هذه الموسوعة من قبل الشركة التي تحمل اسمها، والتي تأسست عام 1966، وتصدر تباعا وتثرى بمعلومات جديدة، حيث تقع في 34 مجلدا، يساهم فيها الكثير من المتخصصين في المجالات التاريخية والثقافية والاجتماعية المختلفة، وصدرت على شاكلة الموسوعة البريطانية.

[8] ولد المؤرخ شارل روبير اجيرون سنة 1923 بمدينة ليون، وتوفي عام 2006، زاول دراسته في التاريخ ليعين سنة 1947 بثانوية تيوفيل غوتيي بالجزائر وفي سنة 1957 أصبح أستاذا بثانوية لاكنال دو سو ومن سنة 1959 الى 1961 اشتغل ملحقا للبحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي. ترك الكثير من الكتابات حول تاريخ الجزائر، فهو برأي الدكتور محمد قورصو ". مؤرخ صديق (للجزائر) دأب على زيارة جامعاتها، والتعاطف معها في أوقات الشدة، آخرها محنة الإرهاب التي عصفت بنا، لذلك يضيف فهو يستحق التكريم، علما أنه أشرف على بعض الطلبة الجزائريين في أبحاثهم ودراساتهم العليا، منهم عبد الحميد زوزو."، ينظر "**جريدة الشروق الجزائرية**" ليوم 21 أكتوبر سنة 2008.

[9] يؤكد الباحث المغربي عبد القادري على أن هذه الحادثة لم يكن القصد منها الإساءة إلى الأمير عبد القادر الذي انتصب " لمحاربة الفرنسيين فأذاقهم الأمرّين، ولكنه اضطر في الأخير إلى الالتجاء للمغرب بعد أن

المساعدة وطرده من المغرب لأنه أصبح بمثابة "الخارج عن القانون" (Encyclopaedia Universalis, 2011, p. 32).

فاستسلم لكي يحمي الجزائر من مجازر رهيبة، شريطة أن يُنقل هو وعائلته إلى الإسكندرية، لكن الفرنسيين لم يحترموا كلمتهم فأخذوه إلى مدينة "تولون" ومنها إلى قصر "أمبواز" في مدينة "بو" ليقضي خمس سنوات، دون مغادرته لسجنه، وكان قد استقبل الكثير من الشخصيات السياسية والدينية، من بينهم نابليون الثالث الذي أفرج عنه شرط أن لا يعود إلى الجزائر، إذ ذهب إلى تركيا ثم انتقل بعدها إلى دمشق ليقضي بقية حياته هناك، وتلك هي "المرحلة الثالثة من حياته، فرغم أنه ابتعد عن السياسة، إلى أنه واصل الاهتمام بالمهاجرين الجزائريين الذين جاؤوا إلى دمشق بأعداد كبيرة، مما تطلب منه في بعض الأحيان طلب المساعدة من نابليون الثالث[10]، كما كان لتدخله لصالح المسيحيين المضطهدين من قبل بعض المتعصبين المسلمين أصداء كبيرة في فرنسا والعالم"، يواصل المؤلف قائلا : اهتم عبد القادر بشكل خاص بالدراسات الدينية، وهو توجه سار عليه منذ صغره... وأصبح أحد المتصوفين الكبار، فصارت أفكاره تُدرّس، ونشر جانبا من أقواله في كتابه "المواقف"، وكان مولعا بأفكار ابن عربي، كما كتب في الفلسفة الدينية للمسيحيين كتابا بعنوان : "ذكرى العاقل" (Encyclopaedia Universalis, 2011).

ينهي الكاتب مادته بمقولة الأمير عبد القادر الذي رفض الاقتراح الفرنسي ليكون أميرا على دولة يكون مقرها في سورية، "لقد انتهت مهمتي منذ سنة 1847م". (Encyclopaedia Universalis, 2011)

ساقت فرنسا الجيوش العظيمة، وإثر ذلك مد الفرنسيون أيديهم إلى التراب المغربي، بلغ السلطان مولاي عبد الرحمن تعديهم حدود بلاده فاشتد به الغضب، وجهز جيشا عظيما أسند أمر قيادته إلى ابنه سيدي محمد، وسار هذا الجيش حتى نزل بإيسلي، وهناك دارت في شهر أغسطس سنة 1844م معركة عظيمة بين القوات الفرنسية المسلحة خير تسليح وبين الجيش المغربي الذي كان لا يملك إذ ذاك من المدافع إلا القليل، فدارت الدائرة عليه فاضطر المغرب إلى عقد الصلح مع فرنسا."، ينظر : مجلة "**دعوة الحق**"، وهي مجلة شهرية تعني بالدراسات الإسلامية وبشؤون القافة والفكر- العددان الرابع والخامس،1957.

[10] يرى الدكتور أبو القاسم سعد الله بأن إطلاق سراح الأمير يعتبر "لفتة كريمة من لفتات نابليون كانت قيدا معنويا في عنق الأمير، ذلك أن الأمير من الذين يقدرون حق الرجال، وتصبح الكلمة عندهم دينا والإحسان قيدا"، ثم يواصل' وقد ظل فضل نابليون عليه يتبعه سواء كان في بروسة أو في دمشق، في مصر والحجاز، وكان الأمير يرد التحية بأحسن منها، فكان يزور باريس لرؤية صاحب الفضل عليه أو يكتب إليه كلما عنى له أمر يستوجب ذلك"، ينظر : شارل هنري تشرشل (1974م) **حياة الأمير عبد القادر**" ، تحق : أبو القاسم سعد الله، تونس : الدار التونسية للنشر، صص. 24- 25.

دائرة المعارف الإسلامية[11]

تكمن قيمة هذه الموسوعة في كونها لسان العباقرة الأكاديميين من المستشرقين، إذ توكل لكل أكاديمي مختص مادة ليعالجها ويزودها عصارة فكره ويرفقها ببليوغرافية مفصلة تضم أفضل ما كتب في الموضوع، فكاتب المادة حول الأمير عبد القادر هو المستشرق (فيليب دو كوس- بريساك Philippe. De Cosse-Brissac)[12]، تقع المادة في ثلاثة أعمدة، يتطرق فيها الكاتب إلى عائلة الأمير وولادته ثم استلام الإمارة من والده، وعن تقنياته الحربية وتنظيمه للجيش الجزائري، ثم جهاده الذي دام خمسة عشر سنة حقق فيها نجاحات كثيرة حيرت كبار مسؤولي فرنسا العسكريين، ثم يأتي على ذكر الحادثة التي أجبرت الأمير على طلب المساعدة من أمير المغرب، والبقية معروفة حينما يجد المضايقة

[11] دائرة المعارف الإسلامية، مؤسسة استشراقية بامتياز، فرضت نفسها ككتاب مرجعي لا غنى عنه، خاصة وأن المؤسسات الثقافية العربية لم تنجز بديلا لها حتى يومنا هذا، رغم أن النخبة العربية تعي بأن هذه الموسوعة الصادرة باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية تسيّرها وجهات نظر معينة. إذ نلاحظ أن الكثير من المفكرين العرب انتقدوها، وحتى بعض المسئولين في بعض القطاعات العلمية، مشيرين إلى الكثير من مواطن الضعف، والهفوات، بل والإساءة إلى الإسلام وتطويع هذه الأبحاث ضمن رؤية معينة، غير أن انتقاداتهم ظلت دون اهتمام، مثل الكثير من المشاريع المتخيّلة والتي ربما لم ولن تر النور أبدا.
تجدر الإشارة إلى أنه في ستينيات القرن الماضي قامت لجنة من الكتاب والأساتذة في مصر بترجمة المجلدات الأربعة الأولى، بل وراحوا يزوّدون ترجمتهم هذه (التي اعتمدوها على الأصلين الإنجليزي والفرنسي) بحواش وملاحظات وإضافات ومراجعات، وكان ذلك تحت إشراف كل من الأستاذ أحمد الشنتناوي، وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس، وتمت مراجعتها من طرف الدكتور محمد مهدي علام أحد المسئولين في وزارة المعارف المصرية آنذاك، حيث شرع في صدورها بداية من سنة 1933، في القاهرة، عن مطبوعات دار الشعب، فصدرت منها 15 مجلدا، لكن منذ وفاة الأستاذ خورشيد ومجموعته لم تستمر الترجمة التي بقيت مجرد مشروع فقط ينتظر من يستمر فيه ويعمل على إيصاله للقراء.
تقول لجنة الترجمة في المقدمة "ولقد اهتم العالم الحديث اهتماما خاصا بالدور الذي لعبته تلك الحضارة (يعني الحضارة الإسلامية) فأكب فريق كبير من علماء الغرب "المستشرقين" على دراسة تراث تلك الحضارة العظيمة بما فيه من دين سمح رضي كريم، ومن لغة غنية بمفرداتها، مرنة باشتقاقاتها، جميلة برسم حروفها.(...) ثم رأوا منذ بداية هذا القرن أن يجمعوا خلاصة أبحاثهم في كتاب جامع يتبعون فيه منهج القواميس والمعاجم، فكتبوا "دائرة المعارف الإسلامية" باللغات الأوروبية الكبرى "الإنجليزية والفرنسية والألمانية ..." وها نحن نتقدم بترجمتها إلى قراء اللغة العربية"، ينظر : دائرة المعارف الإسلامية/ أصدرها بالانجليزية والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين في العالم، النسخة العربية إعداد وتحرير إبراهيم خورشيد.، الشنتناوي أحمد وعبد الحميد يونس، (1969-1982). القاهرة : دار الشعب. الجزء الأول، ص. 4.

[12] فيايب دوكوس-بريساك، (1905-1963)، ولد في مدينة "فونتان بلو بضواحي باريس، سليل عائلة فرنسية أرستقراطية، من جانب والده، وعائلة عسكرية من والده، درس في باريس واهتم بالمغرب حيث انضم إلى "الجمعية التاريخية المغربية، كما ساهم في العديد من المجلات التي كانت تصدر في ذلك الوقت، وخصص معظم وقته للكتابة حول تاريخ المغرب الأقصى.

من المغرب، ويستسلم، ليجد نفسه في السجن في مدينة "بو" وبعدها ينتقل إلى دمشق، التي يعبر فيها القنصل الفرنسي، حسب الكاتب "عن الإحساس المخلص للأمير لحماية آلاف من المسيحيين، عندما أراد الدروز قتلهم شهر جوليت 1860" (Brill,1991, pp. 69-70).

لم يتطرق الكاتب إلى الجانب الثقافي والفكري لدى الأمير، هذا علاوة على أن المادة المقدمة تحتاج إلى مراجعة وتمحيص، لأنها تجعل من الجانب الفرنسي هو الذي يملي على الأمير ما قام به، وأنه لم يكن أمامه إلا الاستسلام. وهي مادة مختصرة جدا، بالمقارنة مع ما قدم حول شخصيات ومواضيع أخرى لا ترقى إلى مستوى الأمير الفكري والثقافي والسياسي. هذا ناهيك عن المراجع المثبتة في آخر الموضوع، والتي في أغلبها باللغة الفرنسية، عدا إشارات مختصرة لبعض مؤلفات الأمير[13].

موسوعة ويكيبديا[14]

هي موسوعة الإنترنيت بامتياز، يلجأ إليها العالم بأسره للاطلاع على موادها القابلة دائما للتغيير والتجديد. وهي ليست ملكا لباحث واحد بل لمؤلفين عديدين يحرص كل منهم على إثراء الموضوع المقصود، لهذا يجب أخذ موادها بحرص شديد ومقارنتها مع غيرها من المصادر والمراجع التي تصب في نفس الموضوع.

أول ما يثير انتباهنا بخصوص هذه الموسوعة هو أن المعلومات المتعلقة بمادة"الأمير عبد القادر" غير مرتبة ومتداخلة فيما بينها، وذلك بسبب عدم وضوح المنهج المتبع في ترتيب المعلومات، وهذا ما نراه مؤكدا في بداية المادة التي تشير إلى أنها "تحتاج إلى مصادر ومراجع إضافية لتحسينها وتحيينها ، وقد ترد فيها أفكار ومعلومات من مصادر معتمدة دون ذكرها.رجاء، ساعد في تطوير هذه المقالة بإدراج المصادر المناسبة[15]. وتجدر الإشارة إلى أن المادة الفرنسية تعتبر الأصل وهي مترجمة إلى الكثير من اللغات، منها اللغة العربية، ولكن بشكل مختصر، أو فيما يشبه التلخيص.

---

[13] المادة المقدمة لا تؤدي الغرض المنتظر من صاحبها، وهي غير موضوعية، نقرأ من بين السطور تحيز الآخر اتجاه رجل صد العدو خمسة عشر سنة، وكلف فرنسا خسائر جمة، وكان إلى جانب ذكائه العسكري وحنكته السياسية رجل فكر.

[14] أردنا أن نتوقف عند هذه الموسوعة نظرا لانتشارها ولتعامل الناس معها، إذ أصبحت من أهم المصادر الموسوعية في العصر الحالي.

[15] ينظر الرابط التالي : http://ar.wikipedia.org/wiki

نجد في هذه المادة معلومات غير متوفرة في المراجعة السابقة الذكر، وهي تتطرق إلى شجاعة الأمير عبد القادر وذكائه، وتجربته مع الكفاح ضد المستعمر الفرنسي، وخيانة هذا الأخير للعهد الذي أبرم بين جنرالاته والأمير، ثم انتقاله إلى باريس مرغما، وبعد ذلك بورصة، ثم دمشق التي قضى فيها بقية حياته، وساعد المسيحيين وأواهم، هذه المادة مزودة بالجانب الفكري والثقافي للأمير، إذ تشيد بنبوغه وهو بعد طفلا صغيرا " كان تعليمه الديني صوفياً، أجاد القراءة والكتابة وهو في سن الخامسة، كما نال الإجازة في تفسير القرآن والحديث النبوي وهو في الثانية عشرة من عمره ليحمل سنتين بعد ذلك لقب حافظ وبدأ بإلقاء الدروس في الجامع التابع لأسرته في مختلف المواد الفقهية."، وهذا بعد أن تعلم في مسقط رأسه ثم " بعثه والده إلى وهران لطلب العلم من علمائها، حضر دروس الشيخ أحمد بن الخوجة فازداد تعمقا في الفقه، كما طالع كتب الفلاسفة وتعلم الحساب والجغرافيا، على يد الشيخ أحمد بن الطاهر البطيوي قاضي أرزيو، وقد دامت هذه الرحلة العلمية ما يقرب من السنتين (1237-1239هـ) (1821-1823م)".

لم يكتف الأمير بالتعليم الديني بل تجاوز ذلك حيث" تلقى الشاب مجموعة أخرى من العلوم، فقد درس الفلسفة (رسائل إخوان الصفا–أرسطوطاليس–فيثاغورس)، ودرس الفقه والحديث، فدرس صحيح البخاري وصحيح مسلم، وقام بتدريسهما، كما تلقى الألفية في النحو والسنوسية والعقائد في التوحيد، إضافة إلى المنطق، والإتقان في علوم القرآن، وبهذا اكتمل للأمير العلم الشرعي، والعلم العقلي، والرحلة والمشاهدة." كما كان رجلا استشرافيا لعب دور المسؤول المهموم بالعدل بين الناس لذا " قام الأمير بإصلاحات اجتماعية كثيرة، فقد حارب الفساد الخلقي بشدّة، ومنع الخمر والميسر منعًا باتا ومنع التدخين ليبعد المجتمع عن التبذير، كما منع استعمال الذهب والفضة للرّجال لأنّه كان يكره حياة البذخ والميوعة"[16].

لم يكن الأمير عبد القادر قائدا عسكريا وحسب، ولكنه ترك مؤلفات في الشعر، بل وترك كتابات أخرى متنوعة بعضها ألفها في سجنه وبعضها الآخر في تركيا وفي دمشق.

[16] هذه الإشارات الموجودة بين ظفرين مأخوذة من المرجع نفسه : **موسوعة "ويكيبديا"**. ينظر : الرابط التالي : http://ar.wikipedia.org/wiki

الخلاصة

لقد تتبعت في إعدادي لهذه المادة حول الأمير عبد القادر– كما ذكرت آنفا جملة من المصادر الفرنسية التي تتوفر لدى الأسر والمدارس والمكتبات بمختلف أنواعها والمؤسسات وغيرها، أي تلك المنتشرة على نطاق واسع في الأسواق والمكتبات العمومية، كما اعتمدت على ما هو مثبت في الأنترنيت وخاصة الموسوعات التي تعتبر كتبا مرجعيه ينطلق منها الباحثون والأكاديميون لاستقاء معلوماتهم.

لا شك أن هذه الكتابات المدونة في مختلف المصادر التي تناولناها بحاجة إلى قراءة عميقة من قبل الباحثين والمتخصصين في تاريخ الجزائر بشكل عام، وفي الأمير عبد القادر بشكل خاص لكونها تقدم وجهة نظر مخالفة في كثير من الأحيان لآراء الباحثين الموضوعيين الجديين، لأن ما قدم في هذه الكتب هو تركيز على الجوانب الشجاعة للأمير، ولكن كل مادة تخفي أفكارا مسبقة، إما حينما تتطرق إلى حياة الأمير، أو جهاده. وخاصة التركيز على موضوع علاقته بالمغرب، لذا فإن إعادة غربلة وتمحيص هذه المواد يُعد ذا أولوية كبرى، لأنه كما قلنا فإن دور هذه الكتب المرجعية دور تثقيفي وتربوي وتوجيهي، وهي في معظم الأحيان تكرس وجهة نظر الآخر، الغالب الذي يكتب ويؤسس لانتشار أفكاره.

أغلب المؤلفات الفرنسية تنطلق من هذه الكتابات، وهي عادة يتبعها الباحثون، لأنهم ينطلقون من الموسوعات والمعاجم العامة ليبنوا منهجية بحثهم وأفكارهم. والمطلوب من مؤسساتنا أن تعي هذا الدور، لأنه في حالة الأمير عبد القادر، فالرجل اكتسب احترام العالم، وأعطى صورة سمحاء ونموذجية للإسلام وللمسلم الذي يعمل من أجل بناء وطنه، ويخلق جسورا من الحوار مع الآخر ثقافة ودينا وسياسة، كونه تحلى بالأخلاق العالية واحترم كلمته ووعوده، مما جعله يتبوأ مكانة من بين أهم الشخصيات العالمية، وترك التاريخ يقول كلمته في أولئك الذين حاربوه أو خانوه، أو أرادوا أن يوقعوه في مكائد مختلفة سياسيا وثقافيا وأخلاقيا، لكنه كان حاذقا وصاحب مواقف صادقة وقارة.

تترك هذه الكتابات المرجعية أثرها لدى الشباب لأنها تعتبر بمثابة توجهات تربوية، ولدى الباحثين بحكم أنها توجههم في مجالات بحوثهم إذ أنها :

1- ترسخ لديهم أفكارا تصقل وجهات نظرهم، لأنها تتردد في أغلب هذه الموسوعات الأكثر انتشارا.

2- تقدم توجّهات الآخر ليس أي آخر. بالنسبة لموضوعنا، فهو الفرنسي الذي يكتب بلغة الغالب، الذي سخّر الكثير من المؤسسات والمجلات والأكاديميات الاستعمارية، وجيشا من الكتاب لترويج فكره، وكما رأينا فإن المادة المخصصة للأمير عبد القادر لم يتم تحديثها أو مراجعتها في هذه الكتب المرجعية.

3- غياب الجانب الثقافي في حياة الأمير عبد القادر، حيث نرى تردد نفس المعلومات حول حياة وجهاد وانتقال الأمير من الجزائر إلى فرنسا، ثم تركيا وبعدها دمشق، عدا موسوعة ويكيبيديا التي قدمت بعض الشذرات الثقافية للأمير.

4- غياب المراجع العربية المعتمدة في الموسوعتين (الكونية ودائرة المعارف الإسلامية)، مما يظهر أو يبرز وجهات النظر والتوجهات المقدمة في تلك المواد.

5- حتى المراجع العربية التي تعتمد في الكثير من الأبحاث والتي أثبتنا بعض منها، إما أنها تقدم معلومات مغلوطة، كما رأينا في المنجد، أو تواريخ غير صحيحة، وهذا ما لمسناه في كتاب الأعلام للزركلي.

6- غياب عمل المؤسسات الثقافية في مجال الأعمال المرجعية باللغة العربية البديلة لما هو موجود، أو على الأقل تصحيح الأفكار الواردة في المعاجم والموسوعات الفرنسية.

ولا شك أن معظم الكتابات الفرنسية حول تاريخ الجزائر بحاجة إلى غربلة وفحص ومراجعة، لأنها كما يقول الدكتور عبد القادر شرشار "تفتقر كتابات الآخر وتمثلاته عن الجزائر بصورة عامة وتاريخ الثورة التحريرية بصورة أخص إلى المصداقية، فكثيرا ما ينظر إلى هذا النوع من الكتابات بعين الشك والريبة والحذر، وقد يعود ذلك إلى أسباب كثيرة، منها : الترسبات التاريخية ونظرة الجزائري للمعمر الفرنسي، وما خلفته من آثار ما تزال عالقة بالذاكرة الجماعية للشعب الجزائري، وهو شيء طبيعي ومنطقي إلى حد ما، ومنها طغيان فكرة المؤرخ المستعمر الذي يقف حائلا أمام كل محاولة للتفتح على الثقافات الأخرى، بالإضافة إلى الصورة التي يرسمها الإعلام الوطني الموجه حول هذه الأدبيات، والتي لا تترك مجالا للشك في أن ما يصدر عن الغربي من كتابات حول الثورة لا يمثل مرجعا يؤخذ به في كتابة التاريخ، ولا يرقى مهما كان إلى الموضوعية، ويزداد هذا الشك والحذر كلما تعلق الحديث بتقييم الكتابات التاريخية المتخصصة" (شرشار عبد القادر، 2004).

انطلاقا من هذه المعطيات وفي غياب المراجع باللغة العربية، فإن المراجع الفرنسية تفرض نفسها على الباحث والمهتم بموضوع الأمير عبد القادر، والذي رغم أنه ـ كما أكد

الدكتور مصطفى شريف "شخصية كونية، تجمع بين العقل والروح، ارتكز على تعاليم النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– وأدرك أن الوجود مرتبط بمسألة التعددية، كما أعطى أفعاله بعدا إنسانيا في علاقته مع الآخر"[17]، فرغم عمق هذه الشخصية وأهميتها على المستوى الجزائري والعالمي، إلا أن هناك أخطاء فادحة تغزو هذه الكتابات التي تحتاج إلى مراجعة وتفحص حقيقيين.

بيبليوغرافيا

"دعوة الحق". (1957). **مجلة** شهرية تعني بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر - العددان (الرابع والخامس).

الأعلام–الزركلي. (1992). بيروت : دار المشرق (المجلد الرابع).

الثورة الجزائرية في تمثلات الآخر. قراءة حربي محمد.، وجيلبر مينيي، لكتاب "**أكذوبة فرنسية، العودة إلى الحرب في الجزائر**". بن حمو لجورج مارك.، شرشار عبد القادر، **مجلة إنسانيات**، (2004). (23-24).

شرشار، عبد القادر (2004). الثورة الجزائرية في تمثلات الآخر. قراءة محمد حربي وجيلبر مينيي لكتاب "**أكذوبة فرنسية، العودة إلى الحرب في الجزائر**" لجورج مارك بن حمو، **مجلة إنسانيات**، (24).

الطلبة الجزائريون في أبحاثهم ودراساتهم العليا، منهم زوزو عبد الحميد، (2008، 21 أكتوبر). أنظر : "**جريدة الشروق الجزائرية**".

عبدالجبار، عبدالرحمن (1990). **المدخل إلى المراجع العربية العامة**. البصرة : جامعة البصرة.

لشارل هنري، تشرشل (1974). "**حياة الأمير عبد القادر**". (ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله). تونس : الدار التونسية للنشر.

مصطفى، الشريف (الأربعاء 22 ماي 2013). يحاضر بالمعهد الفرنسي بالجزائر.- الأمير عبد القادر شخصية كونية تجمع بين العقل والروح-حميد عبد القادر، **جريدة الخبر**.

المنجد في اللغة والإعلام. (1992). بيروت : دار المشرق.

[17] حميد عبد القادر والشريف مصطفى، يحاضر المعهد الفرنسي بالجزائر.- الأمير عبد القادر شخصية كونية تجمع بين العقل والروح. **جريدة الخبر**، الأربعاء 22 ماي 2013.

موسوعة ويكيبيديا. http://ar.wikipedia.org/wiki

الهجرسي، سعد محمد (1971). **المراجع ودراستها في علوم المكتبات**. القاهرة : جمعية المكتبات المدرسية.

Beaudiques, M. et Béthery, A. (1995). *Ouvrages de reference pour les bibliothèques: repertoire bibliographique*, (4e éd.). Paris : édition du cercle de la librairie, p. 21.

Brill, E.-j.t. Brill. G- P. (1991). *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition, établie avec le concours des principaux orientalistes-Leiden, Paris : Maisonneuve et Larose S. A, 1, pp. 69- 70.

Encyclopaedia universalis. (2011). Paris : éditions Encyclopaedia universalis, pp. 32- 33.

Le Petit Larousse illustre. (2013). Paris : Larousse, p. 1173.

Prévoteau, M.- H. et Claude-Utard, J. (2005). *Manuel de bibliographie générale.* Paris : édition du cercle de la librairie, p. 89

Rey, A. (2014). Le Petit Robert des noms propres : *Dictionnaire illustré* nouvelle édition – Paris : Le Robertμ, p. 4.